



قال عنه الألباني "لا يصح"

## التاريخ العثماني: حوّل محمد "الفتاح" أسطورةً دينيةً بحديثٍ ضعيف

السلطان محمد الثاني، المعروف بلقب "الفتاح"، يعد أحد أبرز سلاطين الدولة العثمانية، حيث نال هذا اللقب بعد فتح مدينة القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية، التي استعصت على محاولات الفتح السابقة. وبهذا الحدث التاريخي، اكتسب محمد الفتح شهرة واسعة، تحولت لاحقًا إلى جزء من تاريخ مقدس محيط بشخصه.

فتح القسطنطينية في عام (1453)، الذي يعد من أهم الأحداث في القرن الخامس عشر. فقد كتب المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوкас في رثاء المدينة: "لهفي عليك أيتها المدينة- القسطنطينية- يا مدينة المدائن. يا قبلة أركان الكون!"، معبرًا عن فجيعة سقوط المدينة بيد العثمانيين.

كان فتح القسطنطينية بالتأكيد لحظة محورية في التاريخ، ولكن المثير للجدل هو استغلال هذا الفتح لصناعة تاريخ مقدس للسلطان محمد الثاني. فقد تم تصويره على أنه "الأمير المبشر" في الحديث المنسوب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو غير صحيح: "لنفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش"، حيث استخدمه البعض لتقديس تاريخ السلطان وتجاهل جوانب أخرى من حياته.

من ناحية أخرى، يفضل البعض عدم النظر إلى فتح القسطنطينية كعمل بطولي فقط، بل كنتاج طبيعي لضعف بيزنطة بعد تعرضها لغزوات متتالية من الصليبيين والمسلمين على حد سواء. وبالتالي، لم يكن الفتح إلا نتيجة حتمية لهذا الضعف.

### الفتاح حالة من التناقضات المؤدجة التي ضمنت كتب التاريخ

تتباين الآراء حول شخصية السلطان محمد الفتح؛ فبينما تصفه المصادر البيزنطية بالطاغية، تراه المصادر التركية سلطانًا رحيماً حتى مع أعدائه. ومن أبرز الشواهد على هذا التباين قصة مقتل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين أثناء الفتح، والتي قدمتها المصادر البيزنطية والتركية بروايات متناقضة، حيث وصفت الأولى السلطان بالقسوة، بينما صورته الثانية بالرحمة.

كما تثار قضية أصول والده السلطان محمد الفتح، إذ يقال إنها كانت مسيحية، وهو ما ترفضه المصادر التركية بشدة، مصرّة على أنها كانت مسلمة. هذا الجدل يعكس جزءًا من الجهود المبذولة لصناعة تاريخ مقدس للسلطان، حيث يُعتبر هذا التفصيل مهمًا في سياق تقديمه كأمر مسلم مبشر بفتح القسطنطينية.

وأكثر من ذلك، هناك آراء تشير إلى أن السلطان محمد الفتح ربما مال إلى المسيحية، حيث تبادل الرسائل مع بابا الفاتيكان، وهو ما يرفضه المؤرخ أحمد آق كوندز، معتبرًا إياها محاولات فاشلة من جانب البابا للتأثير على السلطان. ويرى كوندز أن اهتمام الفتح بالفنون المسيحية كان تعبيرًا عن احترامه لعقائد رعاياه المسيحيين.

من الأمور الأخرى المثيرة للجدل هي بداية تأثير "الحريم" في السياسة العثمانية مع إنشاء قصر طوب قابي في عهد محمد الفتح، حيث ظهرت "دائرة الحريم" التي لعبت دورًا متزايدًا في الشؤون الخاصة والعامّة. ويشير البعض إلى أن زواج السلاطين من الجوّاري منذ عهد الفتح قد أسهم في هذا التدخل المتزايد.

وفي النهاية، يُغفل البعض النظر إلى حال الدولة العثمانية في نهاية عصر محمد الفتح، مركّزين على تصويره كـ"الأمير المبشر". بينما تشير المصادر الأوروبية إلى أن السلطان ترك وراءه إمبراطورية واسعة لكنها منهكة، وجيشًا متعبًا وشعبًا تحت ضغوط كبيرة، ما أدى إلى ظهور صراعات داخلية بعد وفاته.

(1) أحمد آق كوندز، سعيد أوز تورك: الدولة العثمانية المجهولة، أستانبول، 2008.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، الجزء الأول، أستانبول، 1999.

(3) روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة، 1993.

(4) عبد السلام فهمي، فتح القسطنطينية (القاهرة: دن، 1969).

(5) ميخائيل دوкас، شهادة المؤرخ البيزنطي دوкас، ترجمة: حاتم الطحاوي، ضمن مجلة الاجتهاد، (1999).